القرن الحادي عشر

1 - الشاه عباس الصفوي

2 - عبد القادر البغدادي

3 - إبراهيم الكوراني

4 - المقبلي

1

-

هذا القـرن

يبدأ هذا القرن : الحادي عشر الهجري الموافق عام 1592 وينتهي في عام 1688 في التقويم الميلادي ، وقد بدأت الدولة العثمانية التركية (كممثلة للعالم الإسـلامي في ذلك الوقت) في الانهيار والتقلص وفقدان ما كان لها من قـوة وبـأس ، كـما رأينـا في القرن العاشر الهجري . والسبب معروف هو فساد سلاطينها وحكامها وانـصرافهم إلى نزواتهم الشخصية غير عابئين بمصالح هذه البلاد الإسلامية التـي كانـت تحـت نفوذهم ، والتي امتدت شرقا وغربا ، فشملت أجزاء مـن قـارة آسـيا حيـث الـبلاد الإسلامية والعربية ، وثالثة من إفريقيا حيـث بعـض الـبلاد العربيـة ... فكـل هـذه البلاد كانت مجرد ولايات تابعة للدولة العثمانية التركية . ويا ليـت سـلاطينها كـانوا يدركون هذه المسئولية التي ألقيت على عاتقهم وهي : قيادة العالم الإسلامي . لكنهم للأسف لم يدركوا ذلك أو يعوه .. وإنما كانوا على العكـس مـن ذلـك ، يـسيئون إلى الإسلام حتى بتبعيتهم له ، وليس بتولي أمور المسلمين وإدارة شئونهم .

لقد ساءت الأحوال السياسية بدرجة لم يكن لها مثيل من قبل مـع وجـود هـذا القرن الماضي ، فانتشرت في هذا القـرن الفـتن ، وعـم الفـساد ، وسـادت الفـوضى والاضطرابات .. واستمر الحال على هذا النحو ينتقل مـن سـيئ إلى أسـوأ ، خاصـة وأنه كانت هناك تدخلات في الشئون السياسية من الخارج . فقد كانت في داخل أسر السلاطين عناصر أجنبية كالزوجات والأمهات الأجنبيـات ، الـلاتي لا يـستبعد أن يكن جواسيس يعملن من أجل دولهن الأجنبية .

هذا بالطبع .. إلى جانب موافقة بعض سلاطين الدولة العثمانية التركية على مشاركة بعض العناصر الأجنبية في الحكم كخبراء أو مستشارين ، وقد كان هؤلاء الخبراء والمستشارون ليسوا على مستوى الثقة بهم ؛ حيث كانوا يخدمون البلاد الأجنبية التى أتوا منها .. وهذه البلاد كانت تضمر الكراهية والحقد على دار الإسلام بسبب ما حدث في الحرب الصليبية وفي القسطنطينية ، من انتصارات للمسلمين على أتباع المسيحية الشمالية . ولهذا نتفق مع القائلين بأن هؤلاء الأجانب الذين اشتركوا في إدارة شئون الدولة لم يكونوا على مستوى المسئولية التي اختيروا من أجلها .

يضاف إلى هؤلاء الأجانب من السياسيين المشتركين في إدارة شئون الدولة ، قوات الإنكشارية التي كانت داخل الجيش ، تلك التي دلت الأحداث المضطربة بأنهم وراءها ؛ حيث وصل الأمر إلى أن يكون لهم دخل كبير في تولي السلاطين حكم البلاد أو عزلهم .

وكما انتهى القرن الماضي (العاشر) إلا أن هناك في الشرق دولتين تابعتين للدولة العثمانية التركية ، **إحداهما** هي دولة الصفويين بفارس الشيعية التي استقلت في هذا القرن ، وتولى أمرها الشاه عباس الذي استرد ما استولت عليه الدولة العثمانية التركية ، بل وامتد نفوذه إلى أجزاء أخرى كانت تابعة للأتراك مثل : الموصل وبغداد في العراق ، وقندهار ... وغيرها في أفغانستان .

والدولة الثانية التي كانت ضمن النفوذ العثماني التركي هي المغولية بالهند التي بدأت تنسلخ عن الدولة العثمانية التركية شيئا فشيئا ، فإلى جانب عمل أبنائها في هذا الشأن ، كانت هناك تدخلات من إنجلترا في شئونها ، للسيطرة عليها لتقيم بعد ذلك الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس . حيث بدأت إنجلترا هذا التدخل بوصول أول مندوب لها في شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، للاتفاق على

بناء مصانع داخل البلاد .. يعقب ذلك السيطرة الاستعمارية الكاملة في السنوات القادمة على الهند التي انفصلت تماما عن دائرة النفوذ العثماني إلى آخر ذلك من قلاقل وتغيرات في الحالة السياسية شهدتها الهند في هذا القرن .

وبقيت بعض بلاد المغرب العربي مثل : الجزائر وتونس وأجزاء من ليبيا في حكم الدولة العثمانية التركية ، وأما المغرب فقد كان به دولة السعديين التي استقلت بالبلاد ، باستثناء مراكش التي ظلت تابعة بعض الوقت للحكم العثماني التركي .

وعلى الإجمال : يمكن القول بأن الحالة السياسية كانت أسوأ مما كانت عليه في القرن الماضي على الرغم من سوء هذه الحالة في القرن الماضي . إلا أنها في هذا القرن ازدادت سوءا .

وإذا كانت الأحوال السياسية في العالم الإسلامي الذي كانت الدولة العثمانية التركية تتولى السيطرة عليه وحكمه من خلال سلاطين آل عثمان على هذا النحو من السوء ، فلا نستغرب - والأمر كذلك - أن ينعكس ذلك على بقية الأحوال العلمية والدينية والاجتماعية .. فتكون هي الأخرى متدهورة مضمحلة .

لقد ساءت الحالة العلمية في هذا القرن إلى درجة أن يفتي شيخ الإسلام بالدولة العثمانية التركية بإرث ابن العالم لوظيفة والده ، حتى لو لم يكن هذا الابن على علم!! ولم يكن غريبا أن ينحط مستوى شأن العلماء ، وأن ينعكس ذلك على رأي الناس فيهم ، والأخطر هو أن هذا التخلف والتفكير السقيم ينعكس بدوره على العلم ذاته. فلا تقدم ولا تطور ، وإنما جمود وتخلف وتأخر كانت له نتائجه السيئة فيما بعد ، في الوقت الذي ارتفع فيه شأن جهلة المتصوفة حتى صار كبار العلماء يبالغون في الخضوع لهم بشكل متدن سجله صاحب كتاب «خلاصة الأثر».

صحيح أن هناك من فقهاء هذا القرن من أنكر على المتصوفة ما يحوزونه من سلطان ، ولكن إنكارهم كان في الغالب بسبب المنافسة على أمور الدنيا وليس على

أمور الدين . ولهذا .. كان إنكارهم في الغالب على المتفقهين في الدين ، وليس على غيرهم من المتصوفين الأميين ، خاصة هؤلاء المتصوفة الذين كانوا يبالغون في الفساد والتخلف والجمود ، أو كما يذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي «الذين يتخذون اللعب والرقص دينا ، خلطوهما بالعبادة ، أوالذين يخالطون الرجال بالنساء ، وما يحدث من هذا الاختلاط من مفاسد».

وطبيعي .. أن تكون الأحوال الاجتماعية هي الأخرى في تدهور مستمر ، تبعا لهذا المناخ العام الذي سيطر سياسيا على العالم الإسلامي . فليس هناك اهتمام بالفرد.. إنما الاهتمام كل الاهتمام في كل ولاية من الولايات بالأتراك على حساب أبناء البلاد الأصليين ، وإذا تبرم واحد منهم فإن مصيره العقاب والعذاب ، أو حتى الموت .

وفي المقابل .. نجد الأقطار الأوروبية في تقدم وتطور مستمر خاصة بعد ظهور مفكرين كبار وعباقرة مثل «ديكارت» وغيره ممن صنعوا لبلادهم الأوروبية تقدما وحضارة ، والذي حرر الفلسفة من القيود اللفظية والمناقشات المدرسية ، وخلصها من سلطان الكنيسة وابتكر لها منهجا كان هو الأساس لما تحقق من نهضة حديثة تجاوزت وطنه فرنسا إلى غيرها من البلاد الأوروبية ، بل وكل بلاد العالم .

وعلى الرغم من هذا التخلف الذي أصاب المجتمع الإسلامي في مقتل، إلا أن هذا القرن لم يعدم أن يكون فيه مجددون .. يتقدمهم «الكوراني والمقبلي» ، وغيرهما ممن كانت لهم بعض الاجتهادات . ولكن كيف كانت تغطي هذه الاجتهادات العالم الإسلامي المترامي الأطراف في ظل هذا التدهور السياسي والعلمي والاجتماعي ، وقلة أو ندرة وسائل الاتصال بالجماهير ؟!

الشاه عباس الصفوي

على الرغم من أن أكثر الملوك يتصفون عادة بالطغيان والاستبداد ، وأنهم بنص القرآن الكريم : ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[1] إلا أن هناك قلة قليلة جدا منهم يتصفون بالعدل والإنصاف ، ومنهم «الشاه عباس الصفوي» الذي ينتهي نسبه إلى الشاه «إسماعيل الصفوي» مؤسس الدولة الصفوية ببلاد إيران ، حيث كان أهل هذه الدولة على مذهب الشيعة الإمامية ، بينما كانت الدولة العثمانية التركية على مذهب السنة ، فقامت بينهما الحروب التي كانت تنتهي بانتصار الدولة العثمانية إلى أن جاء إسماعيل الصفوي ، ومن بعده أحد أحفاده الشاه عباس الصفوي الذي يعتبره المؤرخون وفي مقدمتهم الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» أحد مجددي القرن الحادي عشر الهجري . حيث كان ميلاده عام 966هـ ووفاته عام 1037هـ ، وكان ملكه لا يكاد يتجاوز – في هذا الوقت – بلاد خراسان ، فأخذ يسعى في توسيع هذا الملك، ويستعيد البلاد التي انتزعت منه ، وكان ملكا قوي الجأش ، واسع الحيلة ، فقصد أولا مدينة مشهد ، وكانت قبائل الأزبك من التتر قد استولت عليها ، فاستردها منها، وانتصر عليها بقرب مدينة هراة سنة 1006هـ – 1597م ، ثم أراد أن يتجه إلى محاربة الدولة العثمانية التركية ، ليسترد منها البلاد التي انتزعتها من الدولة الصفوية، ويستولي على ما يمكنه الاستيلاء عليه من بلادها ، ولكنه آثر قبل هذا أن يتجه إلى ناحية الهند ، فاستولى على قندهار ، وقد كانت وقتئذ من المدن الهندية .

---

(١) النمل : ٣٤ .

وكانت الشركة الهندية الإنجليزية قائمة على عهده في بلاد الهند ، ولها فيها مطامع ومآرب ، تتوسل إليها بحسن الحيلة ودهاء السياسة ، فأخذت تجتهد في صرف «الشاه عباس» عن منافستها في بلاد الهند ، حتى تمكنت من عقد محالفة معه ، وصرفته عن مناوأتها في الهند إلى مناوأة الدولة العثمانية ، وإلى مناوأة البرتغاليين المنافسين لها في الهند ، وساعدته في انتزاع جزيرة هرمز في الخليج الفارسي منهم .

ولما تم هذا للشاه عباس ، بدأ يفكر في أمر جنده ، ورأى أنهم ينقصهم النظام والتدريب ، بخلاف عساكر الدولة العثمانية التركية من الإنكشارية ، فرأى أن ينظم جيشه تنظيما أحسن منهم ، وكان قد أدرك ما وصل إليه الجندي الأوروبي من النظام الحديث ، فأراد أن يأخذ جنده بهذا النظام ، وكان أول مسلم اتجه نحو التجديد في النظام الحربي ، ولم ير في الإسلام ما يمنعه من هذا الاتجاه الجديد ، على خلاف أهل الجمود الذين كانوا لا يزالون يغطون في نومهم ، ويتابعون المضى في غفلتهم ، ولم ير حين اتجه هذا الاتجاه بأسا في أن يستعين فيه بمن سبقه إليه من أهل أوروبا ، وبهذا يكون أقرب من غيره إلى فهم رسالة المجدد المسلم في هذا القرن .

فاستعان الشاه عباس الصفوي على هذا برجلين من الإنجليز ، وهما : السير «أنتوني شارلي» ، وأخوه «السير روبرت شارلي» ، وكان الأول قد خرج من إنجلترا ليساعد أحد الأمراء في حربه مع عساكر البابا ، فوصل إليه بعد انتهاء هذه الحرب ، فقصد بلاد إيران مع رفقائه ، وكانوا خمسين فارسا ، فأمر الشاه عباس باستقبالهم وإكرامهم ، وقربهم منه وأجزل لهم العطاء ، ثم استشار «السير أنتوني» فيما ينويه من محاربة الدولة العثمانية التركية ، وفيما يريده من تنظيم جنده قبل البدء في هذه الحرب، فأشار عليه بتعليم جنده مبادئ العلوم العسكرية ، وبمحالفة دول أوروبا على هذه الدولة ، فرضى الشاه عباس بما أشار به ، ومكنه من تنظيم جنده ، فأخذ يدربهم على النظام الحديث ، ويعلمهم ما يلزمهم لإتقان فن الحرب ، حتى كانوا أول جند من المسلمين تدربو على النظام الحديث ، ولما تم هذا للشاه عباس توجه إلى محاربة الدولة

العثمانية التركية ، فانتصر بهذا الجند المدرب على النظام الحديث مع قلته ، وهزم جنود الدولة العثمانية التركية مع كثرتها ، لأنها كانت لا تزال على نظامها القديم ، واسترد في حربه جميع ما انتزعته من بلاده ، وأخذ مدينة بغداد ، ومدينة الموصل ، ومدينة ديار بكر .

وكان السير أنتوني شارلي قد عقد للشاه عباس الصفوي محالفات مع دول أوروبا ، وكانت تميل إلى محالفته على الدولة العثمانية التركية ؛ لأنها كانت أقوى الدول الإسلامية ، وكانت مسئولة عن كثير من بلاد أوروبا ، فأخذ كثير من الأوروبيين يقصدون بلاد إيران للتجارة وغيرها، وكان الشاه عباس يكرمهم، ويأمر أهل دولته باحترامهم ، ولا يأخذ رسوما على بضائعهم، ورحل إلى إيران أيضا قوم من الأرمن ، فكان يقربهم منه ويساعدهم ، حتى صاروا أصحاب المتاجر والصناعات في بلاد إيران ، وكان السير روبرت شارلي من أعظم المقربين إليه ، حتى صار بيته ملاذ النازحين إلى إيران من جميع الأقطار ، وقد أهدى إليه الشاه فتاة جركسية ، فتزوجها وكان له أولاد منها ، وبهذا كله ، وجد المسيحيون الأوروبيون في بلاده من التسامح الديني ما لم يجدوه في غير إيران ، وإن كان السلطان «سليمان القانوني» قد تساهل بعض التساهل معهم قبل هذا في بلاد الدولة العثمانية التركية . وقد أدى هذا إلى رواج سوق التجارة في بلاد إيران، فكثرت الأموال في أيدي أهلها، وحسنت أحوالهم ، وعظمت قوتهم ، وكانت مدة حكم الشاه عباس لهم ثلاثا وأربعين سنة ، وقد توفي سنة 1037هـ - 1628م .

وإذا كان الشاه عباس الصفوي ، وفي رأي بعض المؤرخين والعلماء ومنهم الشيخ عبد المتعال الصعيدي أقرب إلى فهم رسالة المجدد المسلم في هذا القرن من غيره من المسلمين . فإنه يؤخذ عليه أنه لم يأخذ بلاده بإصلاح شامل ، ينهض بها نهضة حديثة ، كما نهض بجنده وأخذهم بذلك النظام الحديث، فلم يقم بنشر التعليم الحديث في بلاده ، ولم يصلح من نظام الحكم فيها ، بل ترك كل شيء فيها يسير على

نهجه القديم ، وكان هو أيضا يسير على ذلك النهج ، ومن ذلك : أن قبائل التتار كانت قد عادت إلى الهجوم على خراسان ، فأرسل إليها جيشا ردها على أعقابها ، وحدث في أثناء قتالهم معها أن المنجمين رأوا أن الشاه سيقع في خطر عظيم إذا استمر في الحكم ، فأذعن لما رأوه من ذلك ، واعتزل الملك في الحال ، وانقطع في قصره يفكر في هذا الأمر، حتى يكون مثل غيره من الناس ولا يصيبه ضرر، وجاءت حاشيته برجل من العامة فجعلوه ملكا ثلاثة أيام ، فأمر ونهى في هذه المدة ، ولم يعص له فيها أحد أمرا ولا نهيا ، فلما انقضت قاموا عليه وقتلوه شر قتلة ، وأعادوا الشاه عباسا إلى مثل ما كان عليه بعد أن اطمأنت النفوس ، وحكم المنجمون بأن الخطر قد زال . وهذه الحادثة كانت قبل تفكيره في أخذ جنده بذلك النظام الحديث ، وقبل اتصاله على نحو ما سبق بالأوروبيين ، ولكنها تدل على مقدار ما كانت عليه بلاده من الجهل ، وعلى أنها كانت أيضا في أشد الحاجة إلى الإصلاح ، وكان لهذا أثره بعد انتزاعهم جزيرة هرمز من البرتغاليين ، وكانت أعظم جزيرة بالخليج الفارسى ، وقد أنشأ البرتغاليون بها كثيرا من المعامل الصناعية ، فزادت ثروتها ، ونهضت نهضة عظيمة ، فعقد الشاه عباس محالفة مع الشركة الإنجليزية بالهند على أن يساعدوه على إخراج البرتغاليين من هذه الجزيرة ، ويعطيهم إعانة مالية كل سنة ، فساعدته هذه الشركة على انتزاعها من البرتغاليين ، وكانت تريد القضاء على نفوذهم في هذه البلاد، لأنهم كانوا ينافسونهم في الهند ، فلما استولى الشاه عباس على هذه الجزيرة ، لم يجد من أبناء بلاده من يحسن القيام على هذه المعامل ، فتعطلت عن العمل ، وساءت بذلك حالة هذه الجزيرة ، وكان لذلك أيضا أثره في حال بلاد إيران بعد وفاة الشاه عباس ، لأنها أخذت بعده في الضعف ، وعادت إلى مثل ما كانت عليه من الاضطراب وعدم الاستقرار .

وكذلك يؤخذ على مجددنا الشاه عباس الصفوي : أنه مع ذلك التسامح الدينى الذي أظهره للأوروبيين مضى على خلافه مع إخوانه المسلمين السنيين ، ووقع في

حروب طويلة مع الدولة العثمانية التركية ، آثر المضى فيها بتأثير رجال الشركة الإنجليزية بالهند ، ولم يكونوا يقصدون بها مصلحته ، بل كانوا يقصدون أن يقع في هذه الحروب الطويلة ليضعفوه بها، ويضعفوا الدولة العثمانية التركية معه، ويصرفوه عن منافستهم في بلاد الهند ، حتى إذا تمكنوا من تنفيذ مآربهم في البلاد الهندية ، وتم لهم الاستيلاء عليها ، عادوا إلى تنفيذ مطامعهم في بلاد إيران ، وفي بلاد الدولة العثمانية التركية ، ولم يكن أولئك الأوروبيون الذين قصدوا بلاده للتجارة ونحوها إلا طليعة لاستعمارها ، وهي عادة الأوروبيين في كل بلد قصدوا استعماره ؛ لأن أولئك الأوروبيين لم يكونوا إلا جواسيس لدولهم ، يسعون في نشر الفتنة في كل بلد دخلوه ، ليفرقوا أهله إلى شيع وأحزاب ، ويهيئوا لدولهم أن يتدخلوا في شئونهم ، ويستولوا على بلادهم ، وكان على الشاه عباس أن يدرك هذا كله ، بعد أن وصل الأوروبيون من طريق رأس الرجاء الصالح إلى بلاد الهند ، واستولوا على ما استولوا عليه في طريقهم من البلاد الإسلامية ، وكان خطرهم في هذا واضحا لكل ذي عينين، ولكن الشاه عباسا ورجال الدين في بلاده أعماهم التعصب المذهبى عن هذا الخطر ، كما أعمى أمثالهم في الدولة العثمانية التركية ، فمضى الفريقان يتحاربان بتأثير ذلك التعصب المذهبي المذموم ، وهم لا يدرون ما تخبئه لهم الأيام ، ولا يعلمون أنه لا يستفيد من هذا إلا عدوهم الذي يتربص بهم ، ويعمل على إثارة الفتنة بينهم ، ويعين ضعيفهم على قويهم ، ليضعفوا جميعا بعدم اتحادهم ، ويسهل عليه أن يظفر بهم في آخر الأمر .

* * *

عبد القادر البغدادي

صاحب موسوعة : (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) « عبد القادر ابن عمر البغدادي» من مجددي القرن الحادي عشر الهجري .. ولد ببغداد ، ودرس بعد ذلك بالأزهر في القاهرة التي عاش فيها إلى أن مات .. وفي حياته كان متقنا للغة العربية إتقانا عز على أبناء عصره ، وإلى جانبها أتقن الفارسية والتركية ، وقد منحته معرفته للغات الثلاث خاصية جعلته يتميز عن غيره في المقارنة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات بعد أن أدرك ثراءها .. ولعل ذلك ما اكتسبه من أجداده العرب المسلمين .

فيبدو أن أجدادنا العرب المسلمين قد آمنوا بالحكمة القائلة : «العلم صيد ، والكتابة قيد ، وإذا ضاع القيد ذهب الصيد» ، وإلا فما معنى أن تقوم حضارتهم على الكلمة المكتوبة بشكل مبهر شد انتباه أبناء الحضارات الأخرى ، فسارعوا إلى قراءة وتحقيق هذه الكلمة المكتوبة ، ولقوا الكثير من الصعوبات التي يلاقيها القارئ بغير لسانه ؟! .. صحيح أن الرواية الشفوية كانت أول محاولة لنقل الثقافة العربية . واقترن نقل هذه الرواية منذ اللحظة الأولى بالحرص والدقة والأمانة كسمات تضاعفت بعد الإسلام الذي دعا صراحة إلى الحرص البالغ والدقة الكاملة والأمانة الملحوظة في نقل نصوص كتاب الله ، وكثير من نصوص السنة ، فالتزم القوم بالحرص الشديد والدقة الأشد والأمانة المتناهية حين يروون شواهد التشريع في دينهم أو حين يروون بعض أشعارهم ووقائعهم ومآثرهم : جاهلية كانت أو إسلامية . ثم كانت الكلمة المكتوبة بعد ذلك مقيدة مسجلة ، مدونة لكل ما يروونه من أحداث وتشريعات ومآثر وأشعار وأمثال .

وليس صدفة- إذا- أن تكون الكتابة بالنسبة للعرب من صنع الإسلام ، وإلا فما معنى أن يشترط النبي - ﷺ - أن تكون الفدية من الأسرى في أعقاب غزوة بدر نظير أن يعلم الأسير الكتابة لعشرة من المسلمين ، وأن يكون زيد بن ثابت كاتب رسول الله ، وزهاء أربعين كاتبا من هؤلاء الذين علمهم أسرى المشركين ، والأكثر أن يكون القرآن الكريم أول نص عربي إسلامي مكتوب وصل إلينا نتيجة لتعلم الكتابة التي سعى إليها النبي - ﷺ - ؟!

ولعل هذا السلوك المتحضر يصبح هديا للبعض من الذين رضوا بجهلهم ورضي الجهل بهم ممن يرون اليوم أن الاستفادة من الفكر العالمي تحمل الشرور إن لم تبعث على الضلالة ؛ وتتسع رقعة الدولة الإسلامية في العصر الأموي مما يؤدي إلى اختلاط العرب بالأعاجم ، وهو ما يؤدي بدوره إلى خشية إفساد اللسان العربي . وهنا بدأ التفكير في تصحيح هذا اللسان وضبطه بتأليف كتب النحو . وفي الجانب الآخر تثور الفتن وتتفرع المذاهب وتكثر الفتاوى ؛ فكان التفكير في وضع كتب في الدين إليها يرجع القوم في أمور دينهم بعيدا عن الأهواء الشخصية والنوازع السياسية والميول العصبية فيدونون الحديث النبوي الشريف، ويجتهدون في استخراج الصحيح فيه من غير الصحيح .

وتنهض الدولة العباسية ، ومعها تنهض الكلمة المكتوبة في جوانب الحياة العربية إلى جوار الجانب الأعظم وهو الدين . وتظهر الكتب محتفظة بالطابع الذي غلب على المؤلفين ، وفي مدار هذه الكلمة المكتوبة تظهر الدعوة إلى تجديد أسلوب الحياة في أمم هذه الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط عن طريق نقل فكر وعلم الحضارة اليونانية ، ويكون تدوين ما تركته الحضارة اليونانية سبيلا إلى تجديد شباب الحضارة الإسلامية ، وجعلها منارة للحضارة الأوروبية الحديثة في سعيها المتلمس إلى التقدم والازدهار .

وتتوالى العصور وتتبدل الحواضر ، وتبدأ عملية الأفول الحضاري للعرب ، ونفتقد الكثير مما تركه الأجداد .. حتى نكون في عصر تطاحن بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة العثمانية التركية على بغداد . وفي هذا الوقت تتفتح كرامة الشاب الصغير «عبد القادر البغدادي» على ما أصاب بعض الكتب العربية النادرة من تلف وضياع . وهنا تشغله فكرة ويحدوه أمل هو أن يؤرخ لشوارد ثقافتنا العربية حتى يحفظها من الزوال . وينتج عن هذا التفكير وذاك الطموح كتاب ضخم يحمل عنوانا واحدا يتكرر على أحد عشر مجلدا هو كتاب (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) . يحققه الأستاذ «عبد السلام هارون» في ثلاثة عشر مجلدا مضيفا مجلدين كفهارس فنية لهذه الموسوعة .

ولا يختلف أحد مع الأستاذ «عبد السلام هارون» في تأكيداته المتكررة على أن هذه المجلدات تتضمن كنزا عظيما من كنوز التراث العربي في جميع جوانب الثقافة الأدبية واللغوية والعمرانية والدينية . وأن هذا الكنز كان في حاجة ملحة إلى نفض مكامنه وإبراز ما به من ركائز وجواهر نفيسة . وأن مؤلفها عبد القادر البغدادي قد هيأه القدر لأن يحفظ لنا غوالي من تراثنا كانت عرضة للضياع إلى آخر الأبد . فاستطاع أن ينقذ ما وصل إلينا عن طريقه بعد أن ضاعت أصوله في غياهب النسيان.

ولاشك أن هذه المجلدات قد خلدت اسم البغدادي ؛ حيث تعتبر أعلى موسوعات التراث العربي . فقد شحنها بالنصوص النادرة ، وحفظ لنا فيها بقايا من كتب قد فقدت أو اندثرت مع عناية حازمة بالنقد والتحقيق بكل ما تورده صفحاتها. هذا إلى جانب سرد للكثير من أمثال العرب وبيان معانيها ومضاربها وأصولها وحشد للغات القبائل ولهجاتها ، مع حرص على إيراد أخبار العرب وذكر أيامهم في الجاهلية والإسلام . هذا إلى جانب العناية الكاملة بالمقصد الأول وهو تحقيق المسائل النحوية واستيعاب دراستها مع الاعتماد على أمهات النحو ومطولاته

في علاج علمي نقدي يدعو إلى الإعجاب والدهشة والتساؤل عن كل هذا الصبر والإصرار !

إن نظرة واحدة إلى هذا الثبت العلمي الذي اعتمد عليه البغدادي في تأليفه تكفي للحكم على ما بذل من جهد ضخم وصادق . فالمؤلف- وهو بالطبع ليس من مؤلفي هذا الزمان الذين يذيلون كتبهم بحشد من المراجع والمصادر بشتى اللغات التي لا يتقنونها. وتكون المفاجأة حيث يصبح ما يذكرونه من مراجع ومصادر لا صلة لها بما يؤلفونه من قريب أو من بعيد - فالمؤلف البغدادي هنا صادق ، وصدقه تلمسه فيما تقرأ له في مجلداته . إنه - مثلا - حين يرجع إلى دفاتر أشعار العرب ودواوينهم ومجاميعهم وإلى فن الأدب بوجه عام ، ترى صدى لما يرجع إليه فيما يكتب. كذلك حين يرجع إلى كتب السيرة النبوية وسيرة الصحابة وأنساب العرب وطبقات شعرائهم ، أو حين يرجع إلى كتب اللغة وأغلاط اللغويين وإشكالاتهم ، أو حين يرجع إلى كتب التاريخ والأمثال والأماكن والبلدان .. فإنك واجد صدى لما يرجع إليه في كل ما يكتب ، مما يضاعف من الإحساس بصدقه وأمانته ودقته من ناحية ، كما يدفع المرء للحكم بأن ما قام به بمفرده عمل ضخم تعجز عنه لجان هذا الزمان .

إن مجلدات هذه الموسوعة الكبيرة في أحجامها الهائلة وفي كيفها ، المتضمنة للكثير من جوانب المعرفة الإنسانية والمنسوبة لصاحبها عبد القادر البغدادي تضم فيما تضم العديد من الكتب والنصوص العربية النادرة ، التي اندثرت أو بادت أو تلفت . حتى لم يعد لها وجود إلا بين صفحات هذه الموسوعة التي نعرفها اليوم بخزانة الأدب البغدادي .. هذه الموسوعة الضخمة كيف جمع صاحبها البغدادي مادتها ونسق فيما بينها ؟!.. والأكثر كيف تحولت إلى عمل مؤلف من حق صاحبه أن يضع عليه كلمة «تأليف» بدلا من كلمة جمع ؟! .. وقبل الإجابة عن هذا السؤال من حق البغدادي ومن سبقه من العرب الذين اتجهوا إلى العمل الموسوعي الإشادة

بجهودهم . ذلك أن ظهور مثل هذه الأعمال الموسوعية في أمة من الأمم يدل دلالة واضحة على نضج ثقافتها واتساع آفاق المعرفة أمامها . ولعل هذا يرجع إلى شعور أبناء هذه الأمة بوجوب جمع المعرفة لأبناء لغتهم وتبويبها ، بحيث يسهل الاطلاع عليها . وهذا ما فعله أرسطو منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا . ومن بعد ذلك جاء العرب فبدأوا ترتيب معارفهم على أساسين : **أولهما** أساس معارف الأمم السابقة **والثاني** أساس معارفهم الخاصة .. فبدأ الجاحظ منذ أكثر من عشرة قرون في جمع المعارف ، فترجم عن أرسطو وزاد عليه كثيرا من تجاربه الخاصة بعلم العرب وتراثهم ، وبوب ورتب كل ذلك فيما عرفناه بكتاب (الحيوان) . وبعد الجاحظ ظل العرب قرونا يجمعون معارفهم على مدى العصور حسب إمكانات العصر واحتياجات إنسانه.. إلى أن جاء القرن الرابع عشر الميلادي .. فإذا حركة موسوعية خاصة تجمع تراث العرب من شتى النواحي ، فها هي كتب عن اللغة ، وأخرى عن التاريخ، وثالثة عن الأدب. كلها تظهر بشكل موسوعي، فظهر ابن منظور والنويري والقلقشندي .. ومن بعدهم كان البغدادي عليه أن يواصل هذه الرسالة . فاتجه طموحه إلى رصد الكثير من المعارف الإنسانية بشكل يضبط اللسان العربي ويصححه كما يحافظ على التراث العربي ويخلده .. أن يتناول كتاب (شواهد شرح الرضى لكافية ابن الحاجب) بالشرح والتعليق . وكتاب (الكافية) قام بوضعه ابن الحاجب ، وشرحه بعد ذلك ابن الرضى في عدد من الصفحات التي تزيد على الثمانمائة ، متضمنا عددا من الشواهد بلغت 957 شاهدا . تناولها البغدادي بالشرح والتحقيق والتعليق والتأليف لتصير فيما بعد أحد عشر مجلدا تحمل عنوان : خزانة الأدب .

وقد ساعد البغدادي على ذلك كونه عالما في اللغات والأدب . فهو في تناوله لقضايا النحو التى يشرحها ويحققها في كتاب الكافية يرصد شتى المعارف الإنسانية. فعلى سبيل المثال : إذا كان الأمر يتعلق بأبيات من الشعر فحص عن قائليها. حتى

يعزو كل بيت إلى قائله ، وينسبه إلى قبيلته أو فصيلته ، ويفرز الإسلامي من الجاهلي ، والصحابي عن التابعي . وإذا كان بيت الشعر – موضوع الشرح – ضمن قصيدة نادرة فإنه يوردها كاملة ويشرح غريبها ويورد سببها ومنشأها ، متوخيا في ذلك تصحيح اللسان وضبطه حتى يعم النفع . إن البغدادي مع عنايته بالمقصد الأول وهو : شرح شواهد كتاب الكافية للرضى ، يسرد الكثير من المعارف الإنسانية من أمثال العرب ولغات القبائل ولهجاتها وتاريخ البلدان وتراجم الشخصيات ، مستطردا في ذلك إلى ذكر أخبار العرب وذكر مآثرهم في الجاهلية والإسلام . وفي سبيل تحقيق كل ذلك يتكون الكثير من المعارف الإنسانية المتعددة الجوانب ، والتي في مجموعها تكون موسوعة ضخمة للتراث العربي . وهو بهذا العمل خرج من نطاق التحقيق والجمع إلى مجال التأليف والإبداع .

وموسوعة البغدادي كنص من النصوص القديمة ، كيف تستثمرها العقول الجديدة ؟ صحيح أن من يدخل هذه الموسوعة ذات الثلاثة عشر مجلدا ، تائه مفقود لما تحويه من معارف متعددة على غير ترتيب ، لكن الخارج منها مستفيد مولود لما يحصله من معارف متجددة على غير حصر : معارف ومعلومات وأبحاث ودراسات وموضوعات .. غزيرة كالضوء المنتشر ، ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمة عظمة من أرخت لهم من بناة الحضارة العربية الإسلامية .

إن قراءة هذه الموسوعة – على اختلاف جوانبها – تحقق الكثير من الفوائد ، فالجوانب الدينية تزود القارئ بشحنة روحانية مصدرها مبادئ وقيم هذا الدين الحنيف ، والجوانب التاريخية ترسم صورا وأشكالا من الحياة العربية القديمة في مراحلها المتتالية ، وجوانب الترجمة للأعلام والعظماء تعطي ألوانا عالية من الحياة القوية البارزة عند العرب الأقدمين، والجوانب الأدبية توسع دائرة الشعور وتكشف لنا عن مواطن الجمال في ثقافتنا ، والجوانب الفلسفية تنبه البصيرة وتوقظ ملكة الاستقصاء إلى غير ذلك من جوانب تنمي لدى القارئ فضيلة البحث الحر، والأكثر

تحضره إلى حمل أمانة وجوده العربي الأصيل في زماننا الذي يموج - أحيانا - بالزيف والسطحية والادعاء؛ حتى أصبحت هذه النقائص في التفكير عملة رائجة للتداول وطريقا مضمونا للنجاح .

هل نحن في حاجة إلى تفصيل ؟ إذا شئنا مزيدا ، فلنصاحب أولا البغدادي في رحلة سريعة داخل موسوعته ، ولنكشف ثانيا عن نوادر الكتب العربية ، ولنتأمل ثالثا الفهارس التحليلية .

إن أول ما يلتمع أمامنا في رحلتنا مع البغدادي : استشهاده في شرحه بآيات من القرآن الكريم . لضبطه اللسان العربي ، وهو في ذلك لا يحاول أن يخلع على الآيات التي أوردها معنى يريده ، أو يكلفها غايات لا تريدها بل تركها وحدها إلى معانيها وغاياتها النبيلة والجليلة . فإذا نحن أمام صرح لغوي هائل أقامه القرآن لحساب تقويم لغة الإنسان العربي وضبط لسانه ، وبعد آيات القرآن تأتي الأحاديث النبوية مستلهما إياها في ضبط هذا اللسان ، واجدا منها الفيض الذي لا ينضب والعون الذي لا يخذل، وكأن هذه الأحاديث ما قيلت إلا لتوضيح القضايا اللغوية وحل إشكالاتها ، وهو باستشهاده بالآيات والأحاديث لا تستغرقه اللغويات ، وإنما يتجاوزها إلى تقديم المعارف والمعلومات .

هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ بالقطع لا . فهذه كتب أدار حولها البغدادي أبحاثه، فيها يطوف الأرض العربية من أقصاها إلى أدناها ، ويحلق في سموات للفكر نعرفها وأخرى لا نعرفها ، فهذا كتاب لسيبويه تدور حوله كتب بلغ عددها 26 كتابا، وهذا كتاب للزمخشري تدور حوله كتب بلغ عددها 24 كتابا . وثالث عنوانه : إيضاح للأشعري يدور حوله 13 كتابا ، ورابع للزجاجي هو الجمل يدور حوله 13 كتابا، وهكذا ثم هؤلاء شعراء وعظماء نجد أنفسنا نطوف معهم ونذهب آنا إلى القرن الأول الهجري وآنا إلى القرن الميلادي وآنا إلى ما قبل الهجرة والميلاد .. طبقات من فحول

الشعراء يمثلون عصور الشعر العربي من جاهليين إلى مخضرمين إلى متقدمين إلى محدثين ، ومن الأعلام ملوك العرب ورؤساؤهم وإلى قبائلهم العربية نتقدم لنتعرف على تكوينها ومنشئها ، ثم إلى الحضارة العربية الإسلامية سماتها وقسماتها من نظم اجتماعية وسياسية ومالية وخلقية وعادات وتقاليد : ولا ينسى البغدادي أن يذكرنا بأيام العرب المجيدة ومآثرهم الخالدة ، ثم رحلات إلى بلدان وعواصم الحضارة الإسلامية ، خطوة تقربنا من بخارى ، وأخرى تنقلنا إلى بغداد ، وثالثة إلى أرجاء الشام ، ورابعة إلى القيروان ، وخطوات أخرى إلى الكوفة وهمذان وصنعاء والقاهرة... وغيرها.

وقد يستوقفنا في استشهادات البغدادي بالكتب أمر على جانب كبير من الأهمية، هو أنه : حين سجل لأسماء كتب انقرضت ، حفظ لنا تراثا غاليا . في مقدمة هذه الكتب كتاب (تأبط شرا) الشاعر القديم وديوان زهير بن أبي سلمى وكتاب اللغة للمتنبي وشرح ديوان أبي تمام لابن المستوفي في عشرة مجلدات ، والفهرست لابن النديم بخطه ، والنصوص لابن سعيد السكري ، وهو كتاب تماثل نصوصه كتاب (النصوص) للجاحظ الذي ضاع إلى الأبد ، و(الدرهم والدينار) لأبي هلال العسكري ... وغيرها عشرات من الكتب اندثرت وانقرضت ، ولكن البغدادي حفظ لنا أسماءها وشيئا من مضمونها ، فحفظ لنا بالتالي منابع وأصول الثقافة العربية الإسلامية ، والتي إن وجد بعضها مخطوطا في أي مكتبة في العالم لكان كفيلا بحل مشكلات الأخطاء التي تتسرب إلى النسخ المطبوعة .

ولا ينتهي المرء من الطواف مع البغدادي في موسوعته بما تضمنته من معارف متنوعة ، وحفظ لتراث منقرض مفقود دون أن يذكر بالثناء ذلك الجهد الفذ الذي بذله الأستاذ عبد السلام هارون ، سواء في تحقيقها في أحد عشر مجلدا ، تحقيقا قربها من روح العصر أو بإضافة مجلدين كبيرين كفهارس تحليلية، هما المجلدان: الثاني عشر

والثالث عشر . إن هذه الفهارس تمكن القارئ المعاصر من الانتفاع بكل ما جاء في هذه الموسوعة من معارف . فبدون هذه الفهارس التحليلية تصبح قراءة كتب التراث - التي لم تجر في غالب الأمر على مناهج علمية منسقة - قراءة عسيرة كل العسر تحفها المشقة والعناء .

إن هذه الفهارس التحليلية تكشف عما في باطن كتب التراث من أسرار وخفايا يصعب الاهتداء إليها للوهلة الأولى ، هذا إلى جانب كون هذه الفهارس معيارا دقيقا توزن به صحة نصوصها بمقابلة ما فيها من نظائر وأشباه بما تكشف عن خطأ المؤلف والمحقق على حد سواء ، ولعل الأستاذ عبد السلام هارون في عمله هذا كان مدركا أن عصرنا المعقد في حاجة إلى اختزال الوقت ، فقد يقتضي البحث عن واقعة أن ينفض الباحث كتابا من عشرين مجلدا للعثور على ما يبتغيه . ومن هنا يمكن القول بأن ما هدف إليه المحقق من وضع فهارس موسوعة (خزانة الأدب) قد أتى بثمرته ، حيث سهل الكثير من الصعوبات التي يقابلها قارئ هذه الموسوعة .

وبعد .. فهذه مجرد انطباعات عاشق للعمل الصالح الذي يتركه الأجداد ويحترمه الأبناء في تعاملهم إياه ، لا تزعم أنها قد أوفت على الغاية أو شارفت على الغرض بقدر ما تقر وتؤكد بأنها هوامش لجهد عظيم من المؤلف عبد القادر البغدادي ، والمحقق الكبير عبد السلام هارون الذي أتاح للمعاصرين الرجوع لتراث الأجداد .

* * *

إبراهيم الكوراني

يعتبر الكوراني في مقدمة مجددي القرن الحادي عشر الهجري . هذا القرن لم يتميز بكثرة مجدديه ، فيبدو أن حالة التفكك التي كانت تسود العالم الإسلامي في المشرق خاصة ، قد ألقت بظلالها على التجديد في الفكر ، فلم يتميز هذا القرن كغيره من القرون الهجرية بكثرة في المجددين ، وإنما أصبح عددهم يقل عن عدد أصابع اليد نتيجة لهذه الحالة .

ومن بين هؤلاء القلة من المجددين ، نجد الكوراني الذي ولد سنة 1025 هجرية في بلاد الكرد ليتعلم في هذه البلاد على أيدي مشايخها ، حيث لم يترك شيئا من العلوم إلا حصل عليه باستثناء علمي: التصوف والحديث - حيث يذكر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» ... وغيره من العلماء والمؤرخين . وقد حصل على العلم والمعرفة ببلاد العرب بعد سفره إليها ، تاركا مسقط رأسه في بلاد الكرد واسمها «شهران».

وكغيره من المسلمين ، ترك بلاده بغرض فريضة الحج . فمر على بغداد ليقيم فيها سنتين كاملتين ، وبعدها توجه إلى بلاد الشام ليقيم فيها أربع سنوات ، إلى أن توجه إلى المدينة المنورة وأقام بها بقية حياته حتى كانت وفاته عام 1101 هجرية .

وطبيعي .. أن يستفيد من علوم هذه الأقطار التي مر عليها ، ويأخذ ما تيسر له من العلم على أيدي العلماء الموجودين وقتئذ ، ليشبع نهمه من الثقافة . وكانت نتيجة ذلك أن يترك آثارا فكرية كثيرة، منها: شرحان كان قد قرأهما على شيخه «القشاش»، هذا إلى جانب آثار فكرية أخرى منها «مسلك الاعتدال إلى آية خلق الأفعال» و«مسلك السداد وإعمال الفكر والروايات» و«إفاضة العلام في تحقيق مسألة الكلام»

و«تنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول» و«إتحاف الخلف بعقيدة السلف» .. إلى آخر هذه المصنفات التي يسجلها الثبت الخاص به .

ويذكر عن الكوراني بأنه كان سلفي الفكر والعقيدة ، وأنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأنه كان يدافع أيضا عما وقع من كلمات في الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية . إلا أن ذلك رأي متناقض يخالف أوله آخره ؛ لأن أخذ الكوراني عما وقع في كلمات الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية يجعله من مدرسة الغزالي التي كانت تنكر عليها مدرسة ابن تيمية ؛ لأنها لم تكن ترى تأويل الحلول أو الاتحاد من كلام الصوفية ، بل كانت تؤاخذهم بهذا الظاهر ، وتحكم بكفرهم من أجله ، بل كانت تنكر ما هو أخف من هذا من بدع الصوفية في مقاماتهم وأذواقهم وسماعهم ، وغير ذلك من أحوالهم ، وما كانت ترى إلا الزهد الذي كان عليه الصوفية ، قبل أن يقعوا في هذه البدع .

ولهذا .. يمكن القول بأن الكوراني كان بعيدا عن مدرسة ابن تيمية ؛ حيث كان يتعلق بالفروع السابقة اعتناقه لمذهب الشافعي ، ولم يقل عنه أنه خرج عن شيء من هذا المذهب الشافعي .

وهذا بخلاف مدرسة ابن تيمية ، التي كان أفرادها لا يتقيدون في كثير من المسائل الخاصة بالمذاهب الأربعة التي تعلق بها غيرهم .

ومع ذلك .. فالكوراني يمتاز عن غيره - كما يقرر مؤرخوه - من علماء هذا القرن؛ إذ كانوا في غفلة عن حال العالم في عصرهم ، وعما أصاب المسلمين في المشرق من تأخر في العلوم التي نهض بها أجدادهم من العرب الأقدمين ، وعما وصلت إليه أوروبا من التقدم الذي كان على حساب حضارة المسلمين في العصر الوسيط حتى أمكنها أن تصل إلى رأس الرجاء الصالح . وكان معها من القوة التي وصلت إليها

بالعلم ما أمكنها بقليل من الجهد أن تستولي على الممالك الإسلامية بسواحل إفريقية، وأن تصل إلى الهند وتستولي على بعض منها ، وتوشك أن تستولى عليها كلها وتستأثر بخيراتها دون غيرها .

وتأسيسا على ذلك ، فالكوراني وغيره حين غفلوا عـن ذلـك كلـه ، لم يـدركوا الرسالة التي يجب أن يقوم بها المجدد المسلم ، على الرغم من أنه اجتهد وجدد إلا أن اجتهاده وتجديده لم يصل إلى مستحقيه .

* * *

المقبلي

يزخر التاريخ العربي الإسلامى بعدد من العلماء والفقهاء واللغويين والأدباء من أبناء اليمن ، الذين أضافوا إلى تجديد الفكر الدينى إضافات لها تقديرها العلمى والتاريخى ، حتى كانت أعمالهم لا غنى عنها في بناء هذا الصرح الهائل من التجديد في الإسلام طوال الخمسة عشر قرنا من الهجرة ، كجانب مطلوب لحل بعض المشكلات التى طرأت مع انتشار الإسلام ، واتساع رقعته في حضارة عربية إسلامية متماسكة نبيلة ممتدة من الأندلس غربا إلى الصين شرقا ، ومن السودان جنوبا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وازدادت الحاجة إلى التفكير في تجديد الفكر الدينى مع تغير الأزمنة وبعدها عن النبوة والعصور الإسلامية الأولى ؛ الأمر الذي جعل رجالا من المجددين على رأس كل مائة عام ضرورة ملحة ، تتطلبها حاجة المجتمع الإسلامي الذي يتسع ويمتد في الممالك والشعوب .

ولهذا .. فقد ظهر في اليمن كما ظهر في مصر أو العراق أو شبه الجزيرة العربية ، بل وفي الأقطار الإسلامية شرقا وغربا مجددون في أي قرن من القرون يقومون بهذه المهمة ، وأعنى بها التجديد . وقدمت اليمن نماذج للمجددين فيها «ابن الوزير اليمني» و«الشوكاني» و«المقبلي» الذين تهتم بهم الآن هذه الصفحات .

إذن.. فالمقبلى واسمه: صالح بن مهدي المقبلى اليمنى واحد ممن اختارهم المؤرخون العلماء ضمن المجددين في القرن الحادي عشر الهجري ؛ حيث ولد وعاش ومات في الفترة ما بين عام 1048، 1108هـ، كما نشأ وتعلم في قريته «المقبل» وتنقل في بقية القرى والمدن اليمنية طلبا للعلم، وتحقيق المزيد منه ، وأهمها مدينة صنعاء التى كانت تعج وقتئذ بالعشرات من العلماء والفقهاء ، وعلى أيديهم أخذ مجددنا المقبلي العلم والفقه ... وغير ذلك .

ويبدو أن الذين علموه كانوا على مذهب أهل السنة المناهض للمذهب الشيعي، ومن هنا بدأت مشاكله ، سواء في موطنه اليمني أو في غيره من الأقطار الإسلامية .

لقد كانت طوائف وفئات كثيرة في اليمن تتبع بوجه عام مذهب الزيدية الشيعي ، ومن هؤلاء من كان يبالغ في الانتماء إلى فرقة من الفرق وهي «الجارودية» ، تلك التى كان مريدوها يتبعون «أبو الجارود» ، وكانت هذه الفرقة من غلاة الشيعة الذين يختلفون في السلوكيات والأساليب ، وربما في تأدية الشعائر اختلافات جوهرية ، مع ما تربى عليه المقبلي من اتجاهات علمية تنتمي إلى أهل السنة . ومع مرور الوقت وزيادة الاحتكاكات بين السنة والشيعة تضاعفت الاختلافات وتضخمت ، وبالغ أتباع الجارودية الشيعية في ممارساتهم وأساليبهم غير المرضى عنها من أهل السنة ، حتى أوشكت أن تكون ثورة على المقبلي والاتجاه السني الذي كان يتبعه ، وأصبح لا مناص ولا مفر من المواجهة الحادة بين الطرفين . فالمقبلي يؤمن بإمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ويعتبرها حقا لهما نظرا لجهادهما ودورهما العظيم في بناء الدولة الإسلامية منذ وقوفهما إلى جانب النبي - ﷺ - ودفاعهما عن دعوته في الحرب أو السلام ، بينما أتباع الجارودية الشيعية يرون غير ذلك . إنهم - باختصار - يعتقدون أن الإمامة كانت من حق علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مستندين إلى قول النبي - ﷺ - : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، بمعنى أن صلته بالنبي - ﷺ - هي الأكثر قربا وتماسكا ، كصلة أخوة موسى عليه السلام من أخيه هارون ، بمعنى عصري أنه أي : الإمام علي كان يمثل الرجل الثاني بعد النبي - ﷺ - ، متناسين بذلك فضل «أبي بكر الصديق» و«الفاروق عمر» وجهادهما من أجل انتشار الدعوة ، وبناء الدولة الإسلامية على النحو الذي كان له أثره فيما بعد . وليس ذلك يعتبر إنكارا للدور الذي قام به الإمام علي كرم الله وجهه، وإنما استرداد لكل صاحب حق حقه .

وطبيعي والأمر كذلك .. أن تزداد شقة الخلاف وتتسع بين المقبلي - وهو من أتباع المذهب السني - وبين أتباع الجارودية الشيعية ، خاصة حين رأوه يعارضهم ولا يتبع تقليدهم في مناقشاته ومساجلاته ، التي تنتهي بتنديده بما يعتقدون ويؤمنون، سالكا طريقا مغايرا لهم ، لعله طريق الاعتدال والتقريب بين أتباع السنة والشيعة على اعتبار أنهما ينتميان إلى دين واحد هو الإسلام ، الذي لا يفرق بين أتباعه سنة أو شيعة ؛ حيث يعيشان في ظله منذ مئات السنين . لكن للأسف يزداد الخلاف بين الطرفين بصورة لا يحتملها المقبلي ؛ مما اضطره إلى ترك اليمن بالسفر إلى خارجها قاصدا اللجوء إلى مكة التي تستوعب كل التيارات والاتجاهات.

لكن يبدو أن المشاكل والأزمات كانت تلازم مجددنا المقبلي ، خاصة وأنه كان يتسم بسمة لعلها كانت السبب فيما يلحقه من أذى ومتاعب .. وأعني : حدته في النقاش ، خاصة لو كان يدرك أن الحق فيما يقول ويعلم . عندئذ لا يكون لديه صبر أو رفق أو لين . ولعله احتد في نقاشه مع علماء مكة الذين لم يصبروا عليه طويلا ، ولم يتقبلوا آراءه التجديدية خاصة في مسألة التقريب بين السنة والشيعة بصدر رحب ، بل بالرفض والمعارضة ، والغضب عليه حتى ينتهي الأمر باتهامه بالمروق والزندقة، وأحيانا بالإلحاد !! مبررين غضبهم عليه لمخالفته لشيعة الإمام علي رضى الله عنه ونفر من السلف الصالح من الصحابة والتابعين .. على الرغم من أنه كان يسلك مسلك هذا السلف الصالح ، وما هجرته وبعده وغربته عن وطنه اليمن إلا بسبب التمسك باتباع هذا السلف الصالح ، ولعله وهو في سبيل ذلك كان يكثر أحيانا من الحط على المعتزلة في موضوعاتهم الكلامية ، وعلى الأشعرية والصوفية في بعض ما كانوا يقولون ، والأكثر على المحدثين من العلماء والفقهاء ، ولا يبالي فيما يناقش أو يسلك لومة لائم إذا كان ذلك في سبيل الرجوع إلى الحق .. وغير ذلك من تصرفات لم يقبلها أهل مكة وعلماؤها المتعصبون . فرفعوا أمره إلى السلطان في استنبول مطالبين باستبعاده من مكة؛ لخروجه على ما يعتقدون . إلا أن السلطان لم يتسرع في

تنفيذ ما يطلبون ؛ حيث رأى في تحري الحقيقة أفضل أيا كانت النتائج . فالأمر يتعلق باتهام مسلم بالزندقة في عقيدته ، وهنا أرسل نفرا من رجاله الذين يثق في أحكامهم ليتحروا هذه الحقيقة ويعودوا إليه بالخبر اليقين .

كانت المفاجأة حين عاد هؤلاء إلى استنبول ، وأبلغوا السلطان أنه ليس هناك ما يعيب المقبلي ، وأن كل ما يدعو إليه هو من صميم الإسلام ، وخاصة الدعوة إلى عدم الفرقة أو الانقسام بين السنة والشيعة ، وأنه على العكس أشد الناس حرصا وتمسكا بعقيدته ودينه . فقط لا يعيبه شيء سوى حدته في النقاش ، تلك التي ألبت عليه القوم في مكة أو في غيرها . لكن في غير ذلك فإن كل ما يصدر عنه هو العمل الجميل الذي هو في مصلحة الإسلام . فاقتنع السلطان بما سمع من رجاله ، ولم ينفذ ما طلبه منه أهل مكة من استبعاد المقبلي عن مكة . بل وتحول أهل مكة إلى الترحيب به ، وعدم التآمر عليه ، حيث لم يجدوا سببا حقيقيا يدعو للتخلص منه ، بعد أن أقر السلطان بقاءه بينهم .

وفي هذا السياق يذهب الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» إلى أن المقبلي قد نشأ في بيئة الزيدية من الشيعة باليمن ، بالضبط كما نشأ من قبل ابن الوزير اليمني ، وكان متأثرا به فيما أخذ به نفسه من إيثار التمسك بالكتاب والسنة على التقليد ، حتى إنه تأثر به في تسميته كتابه الذي أظهر فيه آراءه في ذلك وهو كتاب «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»، فهذه التسمية مأخوذة من كتاب ابن الوزير وعنوانه: «إيثار الحق على الخلق » ، أي : أن الغرض من الكتابين واحد وهو إيثار الاجتهاد في الأصول والفروع بالرجوع إلى الكتاب والسنة أكثر من تقليد المذاهب التي جمد عليها أصحابها ، ولم يبيحوا لأنفسهم الخروج على أحكامها ، حتى لو كان الحق الذي يؤيده الكتاب والسنة على خلافها .

وعلى هذا .. يمكن القول اتفاقا مع رأي الأستاذ الصعيدي وغيره من العلماء والمؤرخين أن المقبلي كان من مدرسة ابن الوزير ، الذي كان في الأصل من مدرسة

ابن تيمية، وما عرف عنها من التعصب لعقيدة السلف في الأصول والفروع ، وذلك مذهب من المذاهب ، فالتعصب له مثل التعصب لغيره من المذاهب ، وإنما تمتاز هذه المدرسة بخروجها على جمود جمهور المسلمين على مذهب الأشعري في العقائد ، وعلى المذاهب الأربعة المشهورة في الفقه ، فكان عندها - بهذا - بعض من الحرية الفكرية ، ولكنها تتعصب مع هذا لمذهبها ، وترى أن الفرقة الناجية هى الآخذة بالكتاب والسنة من غير تأويل ، فلا تعذر غيرها من الفرق في تقليدها لمذاهبها، مع أنها لم تخرج أيضا من دائرة التقليد إلا قليلا ، لأنها لا تبيح الخروج من مذهب السلف في الأصول والفروع ، إلى مذاهب أخرى غير تلك المذاهب التي جمد عليها أصحابها ، إلى مذاهب يقتضيها ذوق العصر الحديث الذي يتسم بمرونة دينة لا توجد عند الجامدين على تلك المذاهب ، ولا عند الجاحدين على مذاهب السلف . فإن الذي يحاول ذلك في العصر الحديث يجد من هؤلاء الجامدين نفورا ورفضا واعتراضا شديدا ، يصل إلى حد الطعن في العقيدة ، وإثارة أصحاب السلطان على آخذه بالقوة ، مع أنه قد يكون على حق .

وهكذا .. وقعت مدرسة ابن تيمية فيما وقع غيرها فيه من الجمود ، حتى صارت ترى لها اختصاصا بالكتاب والسنة دون غيرها ، ولا ترى لغيرها حقا في أن يجتهد فيهما بما يراه أحسن وأفضل من اجتهادها ، مع أن الاجتهاد فيهما - الكتاب والسنة - حق لجميع المسلمين ، ولا يمكن أن يكون مقصورا على ابن تيمية أو مدرسته .. وتأسيسا على ذلك فإن ما أخذ على الكوراني من وقوفه عند الحد الفاصل بين أنصار المتمسكين بالكتاب والسنة ، والجاحدين على مذهب الأشعري في العقائد ومذاهب غيره في الفروع أخذ على المقبلى من مآخذ . ولكن على الرغم من ذلك فقد كان المقبلى واحدا من المجددين في التاريخ الإسلامى لما قدم من الأعمال والاجتهادات ، والتى كان أبرزها محاولة التقريب بين المسلمين : سنة وشيعة تحت مظلة واحدة هي الإسلام.

* * *